



هل العقل مصدر الشعر والإلهام، أم القلب والوجدان..؟

سأل أحدهم صديقه الشاعر، وقد رآه في خلوته الأسرة سارحا
في أفقه الممتد، لا يعي شيئا، وهو مشئت النظرات مبحرا تارة في
سمت ما، ثم ينقلب فجأة إلى التفاتة أخرى، يتقصى فيها أشياء،
ربما لا يدرك ما هي، ولكن وهو في ذهوله جاد في استقصائه،
وجاد فيما يبحث عنه.
قال له: يتردد على شفتي سؤال ويحق لي أن أسأله، كما ألح أن
تجيب بنزاهة وأمانة.

فقال الشاعر: سل ما بدا لك..؟

فاستطرد يسأل: هل العقل مصدر الشعر والإلهام، أم أن
مصدره هو القلب والوجدان..؟



محمد ياسر أمين الفتوى - السعودية

والأخرى تحرك وتدفع للتنفيذ، وبعبارة أوضح وأجلى: إن العقل، وهو العروة الوثقة التي تحكم العقل والرباط في التصرفات، ما هو إلا ملكة واعية تؤدي عملها بشكل آلي، ووظيفة محددة، مهما اتسعت في مراميها ومجالاتها فلا تزيد عن كشف الحقائق الخفية، وإزالة الحجب عن القضايا الغامضة، ثم إنها لا تملك أي سلطان على السلوك، إنها أشبه ما تكون بمصاييح بيد صاحبها تبصره بطبيعة الطريق الذي يسلكه، ثم لا تزيد على ذلك..!

وأما ملكة الوجدان، فهي القوة الدافعة المتمثلة بالعواطف في حياة الإنسان، وإن كانت الحياة السلوكية تنهض على هاتين الملكتين: إحداها تبصر وتكشف، والأخرى تقود وتدفع، ومع ذلك فإن ملكة الوجدان، هي الأسبق إلى التنفيذ واتخاذ القرار من العقل وأحكامه، لأنها تستجيب لما تكمن في دخالها من غرائز نفسية، وعواطف حب أو كراهية جامحة، وحسبها عند ذوي النضج المعرفي أنها تنهض بما يميزها من إحسان يأسر القلب، أو جمال يأخذ بمجامع النفس، أو عظمة تبهر الوجدان! ومثالنا على ذلك بأن العقل يتمتع صاحبه بمراى قرص الزهرة، بحجم تكورها، أو انبساط تفتحها، وتناسق أوراقها، واختلاف لونها، وتأنقها مع ما يحيط بها من نباتات وأزهار جميلة.. ولكن رعشات الوجدان تضيف إلى متعة النظر الآلية هذه بأن تلفت الانتباه، وتوقظ الإحساس إلى ما تنبثق عنها من رائحة عطرية أخاذة، وما يتفجر من عبق كريم يزيد صاحبه انتشاء، ويسمو إلى أبعاد حافلة بكل معاني الجمال، وسبعات الخيال من سحر وفتنة.

وفي سياق مناقشتنا هذه عن العقل وتأثيره في حياتنا الدنيوية المعاصرة، والتزام الغريبيين أو غيرهم بالتمسك به معتقدين أن العقل وحده هو

ولم يتسرع الصديق في الرد كعادته، بل نظر إليه مليا، وبكل أناة قال: اعلم أن الأدب - في تعبير عام - هو اللسان الناطق المشذب، ينفرد به الإنسان المهذب منذ وجوده وقد تميز بدقة التعبير، وتأنق اللفظ، وجمال العرض، وعذوبة المعنى، وحلاوة الجذب والإمتاع، مما جعله ساميا راقيا عن أي كلام عام. وفي تقويمه وأظهار رفعتي يحضرنى قول كيبلنج: «لو خيرت إنكلترا أن تتنازل عن الهند أو شكسبير، لما ترددت لحظة في التنازل عن الهند!» وما ذلك إلا أن الشاعر هو الكنز، وهو نبع الحب الذي لا ينضب، يفيض على بلاده والناس جميعا بالخير والجمال والسعادة.

ولولا خلال سنها الشعر ما درى

بنانة المعالي كيف تبنى المكارم

ولما كان الشعر هو الأسبق في التعبير، وأكثر جذبا والتفاتا إليه بما يتضمنه من لفظ منغم، وجرس وإيقاع طروب يساعد على حفظه، وترداده في كل بادرة تستدعي تذكره واستحضاره والتمثل به، كان أسبق إيفالا في النفس، وأمضى تأثيرا بها. ولكن من الحق أن نقول: إن الشعر والنثر كليهما يسموان بعواطف الإنسان سموا كريما.

ومن الحقائق الثابتة المعروفة عن الإنسان أيضا أنه ذو حقيقتين:

أولاهما الإدراك، ومحلّه الدماغ، والثانية: الوجدان، ومكانه القلب.

ونعني بالإدراك الوظائف التي ينهض بها العقل، ونعني بالوجدان العواطف الدافعة والرادعة والمجدة، وهي عاطفة الحب والكراهية والتعظيم، والانبهار، وغيرها. والإنسان هذا الكائن الحي النشط الفعال، إنما يتعامل مع الحياة وشؤونها بهاتين الملكتين، أولاهما هي التي ترسم وتخطط،



الوجدان والقلب والروح.

فهذه الطبيعة، واللفظ العربي يعني المطبوعة، في رأي ذوي النضج والاكتمال، والإحاطة والاستيعاب، يبرزونها كاملة مكتملة، بل يؤكدون على اعتبارها أنها مطبعة مثالية وليست طابعة، وأنها نقش لا نقاشة كما أنها هي قابلة للانفعال لا فاعلة، وهي أيضا نظام لا نظام، وهي قانون لا قدرة، وشريعة فطرية لا حقيقة خارجية، وأن رؤيتها في غير ذلك جموح ومادية واخلل في تقويمها الحق المبين.

ومن ينظر إلى هذه الطبيعة المطبوعة في كونها المنظور، ويخلق في أجوائها بجناحيها المكتملين، وبالمكتنين الكريمتين - العقل والقلب - وجد أن من جمدها عند حدود العقل فقد ظلمها ظلما كبيرا، وأفقدتها ماهيتها وجوهرها، فهي برأي أولئك الماديين لا تتجاوز أن تبحث في تقلبات فصولها الأربعة كما فهموها بحدود العقل فقط وما هي في رأيهم إلا تغيرات حسب تغير حركة الأرض حول الشمس نتيجة لاختلاف تباعدها أو تقاربها في نصفها الشمالي والجنوبي، بينما في منظور القلب والروح والوجدان غير ذلك، فهو يضيف إلى المسلمات العقلية السابقة انعتاق الوجدان في تعبيره وتحليقه، فالربيع في مناظره الساحرة الحافلة بالبهجة والإمتاع ما هو إلا ابتداء الحياة وذروتها، حتى إذا ما طوي مع الصيف، وجاء الخريف، وأمعن أي متأمل بما يتغير على وجه الأرض فيه، وما يهيئ باستعداداته للموت، ثم ما دأبت عليه فطرة الحياة من تقلب في موت وفناء، ثم من بعث وأحياء، كما تجدد هذه العبرة في كل يوم في منظر غروب الشمس الذي يوحي بفناء هذا اليوم، ثم بعثه في شروقها في

الذي أوصلهم إلى ما وصلوا إليه من هذا الرقي التقني المادي، وقد حلقوا به إلى أعلى مستويات التحليق، ولا بد أن نقرهم على تحليقهم بما زعموا به، ولكن ما هو إلا تحليق بجناح واحد، ولهذا فهو غير متوازن، وقد أفرغوه من خلجات الروح، وكنه ما فطر عليه، فأصبح معتنقوه عالما عقلانيا ماديا خاليا من ذوات الحياة الكريمة، فلذلك وبابتعاد هذه الحياة عن جوهرها الحق، وإيغالها في مادية بحثة جعلها منتقصة بكمالها، وهابطة عن أسمى ذراتها.

فهذا العالم المادي الذي اعتبر العقل هو كل شيء، واستقطبه إلى أبعد غاياته، وجعله أقرب إلى أدوات جامدة وذوات فجأة، واعتنقه مذهباً وسلوكاً ومعتقداً، معتبرا أن الطبيعة هي التي أوجدته واحتضنته بكل مقوماتها ومعطياتها، فلذلك فهم اجتهدوا بمحيط ما وجدوا به، فوصلوا إلى ما وصلوا إليه، وهذا ما قادهم إلى الغلو والغرور والتشتت، وزاغوا أي زيغ باعتبارهم أن الطبيعة هي الطابعة، وهي نقاشة ومصدر ونظام، وهي فاعلة، منكرين كل شيء آخر متمثل بعوامل

أتراه هل أسرع إليها لينكب على مائها فيعيب منه ما يروي ظمأه؟ أم تراه سعى إليها في تودة وأناة وانبهار سارحا مع فتنتها وروائعها الأخاذة، ولكنه حَسْبُه عند شطآنها الفضية اللازوردية هذه! فقد وقف مشدوها مأخوذاً بأسراب الطيور المنتظمة في حلقات تنوع رقصاتنا، وهي محومة في تشكيلات منسقة جميلة، وقد تنوعت حركاتها بتنوع إيقاع أغاريدنا وهتافاتها، فأحس أن البحيرة بكل ما فيها تتجاوب مع هذه الجوقات ذات اللحن الطروب، وقد أوحى له القلب والوجدان أن هذه البحيرة بكل مقومات فتنتها ما هي إلا فكرة مجنحة الأبعاد، سامية المعاني، ووجد أن قلبه:

**مدعور تهمني أدمعه، فتعب الأرض سجايا أخلاقه
ويوزع في أصلاب غياباتها بوح الأهات بأعماق أعماقه
فيهل ربيع، تخفق أضلعه بحديث يتحفنا في إشراقه.**

وازداد تأملا وانسجاما، حتى أحس أنه قد صار مع ما يراه وحدة متناغمة، وأن قلبه المدعور ذاك متجاوب مع كل ذي جمال، وكأن عروق النبت تنز موضحة ما ملم ذلك القلب بأعراقه، ومع كل خفقة من قلبه المبصر تتجلى مغاز ونصوص فهي منه وهو منها، فتتساءل:

أتراه يرفض نصا تبذعه آلام ممتعة في إحراقه؟

ونتساءل أيضا: هل أطفأ ظمأ من ماء البحيرة، أم ازداد وهو يتتبع كل سرب جمالي من أسراب ما يرى أو من أسراب الحياة عامة؟

ونقول: إن العقل يقوده لإرواء ظمئه من ماء البحيرة، ويكفيه ذلك! أما القلب والوجدان ففي سبحاتهما قرائح الشعر والإلهام، تعززهما نوازع مجيدة، تدفعه إلى زيادة العطش والأوام، فهي مصادر إلهامه وإبداعه في أسمى عطاء.

اليوم التالي لكان خير تعبير وجداني وروحي يفسر بأسمى معطياته نواميس فطرة الحياة.

وإذا ما تابع الإنسان سياحته الكونية هذه بنظرة جامعة بوحى قلب خافق عاقل، وفكر بازغ، ووجدان حصيف لوجد هذا الكون مع تباعد أرجائه، واختلاف مادته وأحيائه، ما هو إلا شجرة متناسقة بأغصانها، زاهية بأزهارها، مثقلة بثمارها، ممتعة بنضرتها، وارفة بظلالها، تؤدي وظيفتها بدقة واتقان.

أجل..! فملكة القلب والوجدان، هي مصدر الشعر والإلهام بلا منازع، وهي الأرجح كفة.. علما أن هذا الترجيح لا يفقد العقل من تميزه بإبداعاته، وحصافته، ولكن الانعتاق الوجداني أسبق في إيقاظ العاطفة، وأكثر إفضاء بالتعبير الرمزي الجميل، وأبعد تحليقا بجناح النور، وأبعاد الخيال، وهو في ذلك أجمل إبداعا، وأحكم أسرا.

وكيف لا؟.. أليس في عطش الرمال حنين، وفي تدفق الماء لهفة التياح، وجمر وأنين؟.. وفي الهواء أهات موقعة، واتقاد حرقه، وتعبير حزين رزين؟.. ويستطرد السؤال، والإجابة:

بالحب.. بكل معاني الحب، بل هو هذا - شأبيب رحمة تتواصل، ولم لا؟.. فهذا الإنسان الصاعد المتسلق بشغفه وحب، قاصدا الوصول إلى قمة جبل شاهق، وقد أعياء التعب، وأخذ منه الظمأ مأخذا عظيما، فما إن وصل إلى قمته المنشودة، وتنشق رطب هوائها، وانتشار عبيرها، وإذا به يجد بحيرة صغيرة تتوسط هذه القمة، وقد انعكست عليها أشعة الشمس الفضية، فبدت كأنها مرآة لامعة تتوهج ببياضها، وتنعكس على مياهها نضرة ما يحيط بها من نباتات متنوعة بألوانها، مما جعلها تتماوج بألوان مختلفة متناسقة، فجلت أكثر سحرا، وأبلغ أناقة وجاذبية، وعندما رآها الظامئ المكدود،



يواصل انعتاقه في أجواء سحرية وشطحات خيالية،
وشطط متزن، فيجعله ألصق بالنفس والروح، فهو
الشعر:

الشعر يغزونا فيعتقنا رؤى
ويصر إلا القلب أن يستأثرا
بالرغم ما يشتد في نزواته
يحيا الجمال بناره مزهوها
وهو الطليق إذا أراد إغارة
أو مال عنا لا نراد مقصرا
فطباعه بأصولنا إن سيطرت
أو فارقت فتشف أسمى جوهرها
الشعر هذا الحب ينبت ريشنا
ويصوغنا نغما يهيم مؤلها
ووراء بارقة الضحى يزجي بنا
خطوا يتيه مكرما ومدلها
وعلى طريق الحق يرشد سينا
ويحثنا نقفوا الدروب أجلها
ويصر يزرعنا قرنفلة العلا
ونروم أعراس الزهور أظلها ■

وفي مشهد آخر: لقد أعلنت المئذنة موعد صلاة المغرب، فأسرع المصلون يتوافدون إلى مسجدهم في الحي الذي يسكنونه وهم مهطعون ترهقهم ذلة، وانكسار كريمان، ومن يتألمهم يجدهم في تسارعهم هذا يختلفون عن أي تسارع آخر في مقاصدهم لحاجات أخرى، ولكن في همم هؤلاء غايات كريمة لا تدرك أبعادها، تنطق بها شفاههم، وتلهج بذكرها قلوبهم، فتبدو في عيونهم وفي جميع جوارحهم.

ولو أمعنت النظر في وجوههم لوجدتها في إشراقها أسعد ما تكون في إشراقها الايماني، ولو سبرت ما في قلوبهم من خلجات روحية أثناء خشوعهم في صلاتهم لعجز أي عقل أو أي فكر أن يحيط بإحساسهم، بإرضاء ضميرهم الروحي تجاه خالقهم المعبود.

وبكل تأكيد إن سعيهم العظيم هذا قد جمع العقل بكل استيعابه، وواكبه متحدا مع القلب والوجدان والروح في أسمى انبثاقهم عن أكمل معنى وأجل حقيقة.

وبعد هذا.. لا بد أن نصل إلى القول، كما يرجح عندي - بأن مصدر الشعر والإلهام هو القلب في انعتاقه، والأسبق في إشراقه، فهو القريحة المبدعة. وإن كان هذا الرأي هو الفصل، فهذا لا يعني أن يقلص العقل في هذا الصدد، ويكون بعيدا أو بطيئا عن الإلهام والشعر، بل له باع كريم، وحضور مجيد صقيل، فهو أسرع تناولا وفهما، وأبلغ حكمة، وخاصة في معضلات الأمور.

ولكن يبقى النثر وعاءه الحقيقي مستوعبا كل فكر، فهو حضنه البار يحقق فيه كل مراميه وغاياته. ومع هذا فالشعر الحق هو الحس والنبض، وخفق القلب، واستجابة الدمع، وذهول النفس وشرودها، يتسلل في صور مجنحة وردية، وتعبير رمزي واضح بعيد كلياً عن أي ضبابية أو غموض أو إسفاف، بل